(٣)
وبدأ طموح الشر

إنه الحبُّ الذي جاء يطرق قلب فتاة في الخامسة عشرة ، خرج مِن قلب شاب فوق الخامسة والعشرين ، فهل استجاب قلب الفتاة؟ .. وما معنى أنْ يرسل لها الشاب شاله مبتسما فتتلقاه مبتسمة ثم تلف عنقها به؟ .. ألم تكن تلك الفتاة قد صدته مرتين مِن قبل؟.. لماذا وافقته الآن هكذا؟

إنها عاداتُ الغجر ، فإنَّ سالم السعدي شاب غجري ، ولم تكن الفتاة وعد الغجرية تعرف عنه ذلك في البداية ، فالزواج في الثقافة الغجرية يُبنى على أنَّ الغجر لا يتزوجون مِنْ خارج دوائرهم ، إذ يمثل زواج الأقارب لديهم قاعدة صارمة لا يمكن تجاوزها ، فالغجري لا يتزوج إلا غجرية ، والغجرية لا يتزوجها إلا غجري ، ولذلك فإنَّ كثيرا مِن الأغاني التي يغنيها الغجر في أفراحهم وأفراح غيرهم ، وكذلك أفلام السينما مثل "تمر حنة" تتحدث عن كثرة العشاق الذين أحبوا بنات الغجر ولم يستطيعوا الزواج بهن .

وغالبا يتمُّ عقد الزواج دون حضور مأذون ، لأنهم لا يعتمدون في الزواج سوى على الثقة المتبادلة بينهم ، وفترة الخطوبة لديهم لا تزيد على خمسة أشهر ، وعادة ما يتم الزواج عند الغجر في سن مبكرة ، ويمتاز بطابع خاص ، حيث يُرْسِل الغجري في بادئ الأمر ربطة عنقه أو الشال الخاص به إلى الغجرية التي يرغب في الزواج منها كما فعل سالم مع وعد ، فإذا ارتدتْ ما يرسله فهذا يعني أنها قبلتْ بالزواج منه ، سواء كان قبولها عن حب أو بغير حب ، ويُعد الطلاق بينهم أمرا نادر الحدوث .

كما أنَّ تعدد الزوجات أمرٌ مُسلَّمٌ به عند الغجر ، ترضى عن ذلك الغجرية دون رفضٍ أو جدال ، فيتزوج بعض الغجر مِن زوجتين أو ثلاث أو أربع ، يقمْنَ بالعمل والإنفاق على الرجل في كثير من الأحيان ، وثراءُ الرجل منهم يُقاس غالبا بعدد زوجاته مِن السيدات اللاتي تعملْنَ للإنفاق عليه .

وبالطبع لم يستجب قلب الفتاة وعد الغجرية للحب ، إنما استجاب عقلها لفكرة أنْ تتزوج شابا غجريا يبدو أخرق ساذجا ، فهي تعلم جيدا أنه لا يمكنها أنْ تتزوج إلا غجري مهما بلغت مِن الجمال والسحر والتميز ، كما تعلم أنه يجب عليها أنْ تتزوج قبل أنْ يفوتها قطار الزواج الذي يقف للغجرية في سن صغيرة لتستقله ، فإن تقاعستْ حتى تصل للعشرين تركها وانطلق بعد أنْ يتركها للقيل والقال مِن قبل الحاسدات مِن نساء الغجر.

وإنَّ تلك الفتاة الغجرية وعد عندما وافقتْ على سالم وافقتْ وهي توقن في قرارة نفسها أنها لا يمكن أنْ تخضع يوما لرباط الحب ، فلماذا الانتظار؟ .. فليكن سالم زوجها وفقط ، وليكن حلمها بالثراء الفاحش معشوقها الخفي .. إنها قد أحبتْ طموحها ونفسها وشيطانها إلى درجة العشق .. لم تعرف إخلاصا إلا الإخلاص لذلك ، وقد تخون الجميع ، لكن مِن الصعب أنْ تخون طموحها ، وإنها امرأةٌ مغرورةٌ للدرجة التي تجعلها تمارس عملها بالتسول بين السيارات بكبرياء وشموخ كبيرين لا يتناسبان مع عمل التسول ، فكيف لها أنْ تتواضع إلى تلك الدرجة التي تجعلها تحب شابا مثل سالم؟

حقا إنَّ سالم السعدي - هذا الشاب الغجرى - بالنسبة لها لا يملك أية ميزات في هيئته الشخصية ، ولا شك أنَّ الحاسدات لها مِن فتيات الغجر سيجدْنَ في

شكله المتواضع بالقياس لها منافذ كثيرة للسخرية منها ، وقد ترفضه أمها ويرفضه أبوها لهذه الأسباب إنْ لم يكن يملك شيئا آخر يعوض النقص .

لكن وعد رغم كل ذلك قد قبلتْ الزواج بسالم عندما قبلت شاله ولفَّته حول عنقها ، فما الذي أعجبها في سالم؟ أو لماذا قبلتْ بالزواج منه؟ .. السبب ليس أكثر مِن أنها قالت لنفسها عندما فكرتْ قبل أنْ تقبله (ظلُّ رجل أفضل مِن ظلِّ حائط) خاصة إنْ كانت المرأة شديدة الطموح ، شديدة الشر كوعد ، وكان هذا الرجل يبدو كسالم الغجري .. إنها تريد منه الظلَّ فقط الذي تمشي خلاله لتحقق كلَّ أحلامها الشريرة دون أنْ يمنعها أو يقول لها : (كَفَى)

ذهب سالم السعدي مع البعض مِن أهله إلى بيت أهل وعد بمصر القديمة لخطبتها .. أخبرهم أنه يملك محلا لتصليح الساعات وبيعها في العتبة ، وله زوجتان قبل وعد ، لم يُنْجِبْ منهما بعد ، وسوف يستأجر لها شقة الزواج بمدينة العبور .. نظر أبوها لها ورأى في عينيها القبول ، ثم نظر إلى أمها ألطاف .. حبستْ أمها في نفسها كلاما كثيرا لتقوله لابنتها الجميلة بعد انصراف الضيوف .

وانصرف الضيوف وخلت الأم بابنتها .. قالت لها :

- هل جُننتِ؟ .. ماذا يعجبك فيه؟

ضحكتْ وعد ضحكة ساخرة وقالت :

- وماذا يعجب أية غجرية في الرجل غير أنه رجل؟ .. نحن مَن نعمل ونربي ونحمل الهمَّ كله

- وعد .. ألا يزعجك أنه متزوج مِن اثنتين؟

- وماذا في ذلك؟ .. نحن نقبل ذلك في عاداتنا

- ولماذا لم ينجب حتى الآن مِن الأخريين؟

- قد يكون بسببهما يا أمي .. لا تظلميه

- وعد يا ابنتي .. ألا تعرفين قيمة نفسك؟ .. ألا تنظرين في المرآة؟ .. سالم هذا.....

وقاطعتها وعد قائلة :

- لا يهمني شكله .. أنا موافقة عليه هكذا

- أتحبينه يا وعد؟

- أمي .. أنا لا أحب غير المال .. أنتِ تعرفين طموحي .. أنا تربية يدك يا ألطاف

- وهل سالم هذا هو مَن سيحقق طموحك؟ .. لا تنظري إلى سيارته .. إنه مجرد ساعاتى

- لا تقلقي .. لن يتحقق طموحي إلا في ظل رجل كسالم

- وعملك في مدينة نصر.. كيف ستذهبين إليها كل يوم مِن العبور؟

- لا شيء يَبْعُد على الغجر يا أمي

وتزوجتْ وعد المحروس مِن سالم السعدي ، وبالطبع لم تتوقف عن ممارسة عملها في التسول بمكانها في مدينة نصر ، كان يبيت عندها يومين في الأسبوع ، وقد ارتاحت لذلك ، فلم تكن لتتحمله أكثر مِن يومين ، لكنه كان قد غرم بها وبجمالها الأنثوى إلى درجة الافتتان ، فقد وجد عندها ما لم يجده في الزوجتين السابقتين لها .. أشبعته جنسيا ، وملكتْ عليه كل تفكيره .. كانت موهوبة في الجنس حقا ، باهرة في الرقص والغناء ، أراد أكثر مِن مرة أنْ يقضي معها أياما أكثر ، لكنها كانت تصده عن ذلك بحجة أنه يجب عليه أنْ يعدل بينها وبين الأخريين .

ومرَّ عام ولم تحمل وعد ، وهنا بدأت شكوك أمها تتزايد بأنه رجلٌ عقيم لا ينجب .. قالت لوعد :

- أنا خائفة يا وعد مِن أنْ يكون زوجك كالشجرة التي لا تثمر.. أوراق وفقط
- الأوراق تكفيني يا أمى .. أخبرتكِ مِن قبل أني لا أريد منه إلا الظل
- لكن أنتِ تحتاجين للثماريا وعد .. الأولاد لهم طعم مختلف يُنعش القلب
- ربما أكون أنا الأرض البور التي تموت كل نبتة توضع بها .. قد يكون السبب مِني
- ومَن ينام معهما قبلكِ يا وعد .. الأرضان اللتان يرويهما لسنوات .. هل هما أيضا بور؟

ولم تهتم وعد بكلام أمها أو تقلق بشأن الإنجاب .. إنها لم تتشوق يوما للأطفال ، ولم تحب أبدا الأطفال .. إنَّ كامل تفكيرها يتركز حول طموحها في أنْ تكون ثرية ، فإنْ صار لها يوما طفل وجب أنْ يكون ثريا مثلها ، ولذلك فقد بدأت تفكر في نقل عملها للخدمة في البيوت مع الاحتفاظ بمكانها ومكانتها في إشارة مطعم البرج ، فقد تقع على شيء ثمين ، وبالفعل راحت تخطط لهذا الأمر وتتحدث عنه كثيرا مع نوال ونهاد على أنهما سينوبان عنها ويجمعان ما يُسمى (الغلَّة) في غيابها ، وهي تعود لهما تكرارا لتحصيل نصيبها .

وبالطبع لم يخلُ ذهن سالم السعدي مِن التفكير في أمر الإنجاب ، ورغم ذلك لم يفكر يوما في أنْ يذهب إلى طبيب ، كان خائفا إلى درجة الرعب والخزي مِن أنْ يخبره الطبيب بأنه لا يُنجب ، لذلك وضع رأسه بالرمال كالنعام حتى كان اليوم السعيد له .. استقبلته زوجته الثانية صباح بسعادة مصنوعة صنعا بخبرة امرأة

غجرية بينما كان عائدا مِن عمله للمبيت عندها بمدينة النهضة .. قالت للمسكين الساذج :

- أنا حامل يا سالم .. أنا حامل

طار مِن الفرحة ، حملها مِن باب الشقة حتى حجرة النوم .. وضعها برفق على سريرها قائلا :

- هذا أسعد خبر سمعته في حياتي .. الحمد لله
- هل رأيتَ؟أنا أول زوجة ستحقق حلمك وتُنجب لكَ .. هل تريد ولدا أم بنتا؟
- لا يهم .. المهم أني قادر على الإنجاب
- طبعا يا سالم .. أنتَ سبْع الرجال

وثبَّت سالم كتفيها أمامه بيديه ، وراح ينظر لعينيها بجدية ، فأصابها القلق ، لكنه زال بقوله :

- لا أريدكِ أنْ تخرجي للعمل طوال فترة الحمل

وكان أول ما فكَّر فيه سالم فور ذلك أنْ قطع كل هذه المسافة البعيدة ليذهب إلى مكان عمل وعد بإشارة مطعم البرج .. أخبرها بهذا الخبر السعيد ، فما كان منها إلا أنْ ابتسمتْ ابتسامة مصنوعة وقالت :

- ألف مبروك يا سالم .. يتربى في عزك
- الله يبارك فيكِ .. عقبالك

ولحظ سالم عدم اهتمامها ، وظنَّ الزوج المخدوع ظنَّ السذاجة أنها قد غارت مِن صباح فقال لها :

- لا تقلقي .. ستحملين قريبا

وابتسمتْ وعد وصمتتْ لكنها قالت في نفسها : (ومَن أخبركَ أني قلقة أيها الساذج أو أني أريد أنْ أحمل منك؟ .. ثم إني أظنُّ أنَّ تلك العاهرة صباح حامل مِن غيرك)

وعلمتْ راضية الزوجة الأولى لسالم بخبر حمل زوجته الثانية صباح ففرحتْ لها ولسالم كثيرا ، وكانت شقتها بمنشية ناصر ، فذهبتْ فور أنْ عرفتْ مِن هناك حتى النهضة لتبارك لها .

كانت راضية طيبة القلب ، تحبُّ زوجها سالم صدقا لا كذبا ، وقد تزوجته عن قصة حب بينهما ، ولا تنقطع عن أنْ تقصها لكل مَن تعرف باستمرار ، وقد فضَّلت أنْ تعمل بالخدمة في البيوت عن أنْ تعمل في التسول كما تعمل الغجريتان الأخريان صباح ووعد .

وكان شعاعُ الحبِّ الذي سطع بقلب سالم تجاه حبيبته الأولى راضية قد خبا نهائيا ليسطع في سماء أخرى أمام وعد ، حيث صار حبه لها وشغفه بها يزداد يوما بعد الآخر ، فلا يرى في الدنيا غيرها ، وما كان اهتمامه بصباح إلا لأنها ستنجب له ولدا أو تنجب بنتا .. لا يهم .. الأهم أنها ستُنهي إحساسه بالمعرة والنقص الذي طالما عاش يشعر به منذ شهوره الأولى في الزواج .. والأكثر أهمية مِن ذلك أنَّ صباح بحملها ستضاعف حجمه كثيرا في عين وعد ، فسوف يظهر أمامها في النهاية أنه الرجل الفارس القادر على الإنجاب ، وإنْ كان قد تأخر ذلك كثيرا .

وبدلا مِن أنْ يوجه سالم اهتماما أكثر بزوجته الحامل صباح راح يصبُّ كلَّ اهتمامه وغرامه عند وعد زوجته الساحرة ، إنه قد كفاه مِن صباح أنها حامل ، لكن وعد الساحرة قد بلغ بها الضيق ذروته بسبب اهتمامه الزائد بها واقتطاعه مِن ليالي الزوجتين الأخريين لها ، خاصة مِن راضية .

وراحت بسبب ذلك تفكر بكل جدية لتجد حلا لمنع مبيته الكثير عندها ، فوصلتْ لحل فكرت فيه مِن قبل ، وهو أنْ تنقل عملها مِن التسول للخدمة في البيوت ، فهذا سيجعلها قريبة جدا مِن تحقيق حلمها بالثراء لأنه سيقربها مِن الأغنياء ، ودائما حكمتها في الحياة " مَن جاور السعيد يسعد " فقد تجد فرصة لإغواء رجل ثري يمنحها الأموال نظير جمالها ، إلى جانب أنها ستستطيع أنْ تبيت في بيت الخدمة كما تشاء بعيدا عن وجه سالم زوجها العاشق لها .

إنها لم تحبه أبدا ، ولم تسمح لقلبها أنْ تحبه ، بل إنها قد جاهدتْ كثيرا حتى لا تسمح لقلبها أنْ ينجرف مع أي تيار مما يجرف قلوب النساء مِن حب وعشق ، بل لقد اختارت سالم لأنها رأته أبعد كثيرا عن أنْ يكون جديرا بفتى أحلام .. تعرف أنَّ الحبَّ كما يحيي بعض النفوس فإنه يقتل نفوسا أخرى .. إنها تخشى أنْ تحبَّ فيضعفها الحبُّ عن أنْ تصل إلى مساعيها ، وهي لا تسعى إلا لهدفٍ واحد ، المال فقط ، وقد جمعتْ مِن عملها مبلغا مِن المال تحفظه بعيدا عن سالم في البريد ، وكلما زاد رصيدها تزداد فرحتها ، وعلى الرغم مِن كل ذلك فقد بدأتْ تشعر بالإحباط لأنها لم تخرج بعد إلى الطريق .

سامح الله أمها ألطاف الغجرية ، كانت شديدة الطموح ، شديدة الحقد على الأغنياء ، تكره الفقر والفقراء وهي منهم ، تنقم على كل شيء بحياتها ، كانت قد عزمتْ على أنْ تكون أغنى سيدة غجرية بين قومها ، وسلكتْ في هذا الطريق بضع خطوات ، ثم أحبتْ شابا وسيما فأنساها الدنيا ، ونسيتْ معه كل طموحها ، فأرادت أنْ تعيد زراعة ما ذبل مِن أحلامها في بنتٍ لها ، فلم تجد أرضا تستجيب لغرسها الشيطاني غير ابنتها الجميلة وعد .. كانت تردد لها دائما : (المال هو كل

شيء في الدنيا .. المال يشتري لبن العصفور .. مَن معه مال يساوي مال .. المال يُطيل العمرويعوض الهم)

وكانت ألطاف قد تحدثتْ حديثا سريا مع وعد قبل إتمام زواجها مِن سالم ، نصحتها بألا تَخِيب خيبتها ، وما زال أمامها أنْ تنتظر مَن هو أغنى منه ، لكن وعد ابنتها غرس يديها طمأنتها بأنها اختارت سالم لأنه بطيبته وسذاجته لن يكون عائقا أمامها في شيء ، وإنْ صار عائقا داسته بقدمها بالطلاق أو بغيره ، ومرَّتْ على أشلائه لاستكمال طريقها ، فارتاحتْ الأم لتفكير الابنة الشيطاني وباركت لها ، وأخبرتها أنها ستكون معها في كل شيء كلما احتاجت إليها .

وواتتْ وعد فرصة الخدمة في البيوت حتى شقتها في العبور ، يوم أنْ طرقتْ راضية بابها هناك ، وكانت المرة الثانية التي تزورها بعد زواجها مِن سالم .. رحبتْ بها وعد ترحيبا مبالغا فيه ، وتناولتا طعام الغداء سويا .. وبالطبع فإنَّ وعد تعرف أنَّ راضية تعمل بالخدمة في البيوت .. سألتها :

- راضية .. هل الأفضل لكِ التسول أم الخدمة فى البيوت؟

- الخدمة طبعا هي أشرف وأفضل بشرط أنْ تكوني قادرة على أنْ تحافظي على نفسك

فسألتها وعد سؤالا جريئا :

- ألم يصادف أنْ عاكسكِ رجل مِمَن تخدمين عندهم؟

ضحكتْ راضية وقالت في طيبة :

- وهل يتوقف الرجال عن ملاحقة الخادمات؟! .. حتى أولادهم الصغار لا نسلم منهم

قالت وعد بمكر وهي تضحك :

- يبدو أنكِ تعرضتِ لمعاكسات كثيرة يا لئيمة

قالت راضية بطيبة :

- فعلا حدث كثيرا .. لكنني والحمد لله أحافظ على نفسي .. أنا لا أحب هذا الكلام الفارغ

- أسمع أنَّ هؤلاء الأغنياء بيوتهم جميلة وواسعة .. وكل شيء فيها غالٍ ونظيف .. وهم أنفسهم رائحتهم تنعش القلب .. آه يا أختي مِنْ روائح عطورهم عندما أقترب مِن سياراتهم !!

- فعلا هؤلاء ناس حياتهم مختلفة عن حياتنا في كل شيء .. ربنا يزيدهم مِن نعيمه

فأسرعتْ وعد تقول بحقد :

- ربنا يأخذهم .. هم يجمعون الملايين دون تعب ويتركونا نشقى ونتعب مِن أجل ملاليم

- الدنيا أرزاق يا أختي .. وليس كل الأغنياء سيئين

- أراكِ تحبينهم وتحبين حياتهم يا راضية

- طبعا يا وعد .. أنا خدمتُ في بيوت كثيرة .. وتعاملتُ مع أصناف كثيرة منهم .. منهم ناس مثل العسل الصافي ومنهم ناس أعوذ بالله منهم .. تماما مثلنا نحن الغجر .. فينا أصحاب ضمير وخير.. وفينا آخرون كلهم شر

ونظرتْ وعد في عينيها ، وقالت بطريقة جريئة :

- طيب احكِ لي بالتفصيل عن معاكساتهم لكِ

ابتسمتْ راضية بخجل ثم قالت :

- غيري الموضوع يا وعد

- لن أغير الموضوع .. وهيا أخبريني .. كم رجل تحرش بكِ منهم؟ وكيف؟ وماذا فعلتما؟

ورغم مكر وعد وخبثها إلا أنَّ راضية لم تفهمها فهما كاملا ، فابتسمتْ واحمرَّ وجهها مِن الخجل وشرعتْ تحكي لها الكثير مِن مواقف التحرش بها ، ووعد تسمع بإنصاتٍ لكل كلمة حتى انتهتْ ، فقالت لها :

- أريد منكِ خدمة يا راضية

- تفضلي يا حبيبتي أنا تحت أمرك

- لقد مللتُ مِن التسول .. أنا مثلكِ أريد أنْ أكسب مالي بالحلال .. ساعديني كي أجد عملا كخادمة في بيت أحد تعرفينه .. لكني أريدهم أغنياء .. أغنياء جدا

فأسرعتْ راضية تقول لها بكل طيبة ورفق وهي تربت على يديها :

- مِن عيني يا حبيبتي .. أنتِ والله محظوظة .. البيت موجود وهم بأنفسهم مَن طلبوا مني خادمة

فأسرعت وعد تقول لها :

- أهم شيء عندي أنْ يكونوا أغنياء

فنظرتْ لها راضية بريبة ، وقالت باستغراب :

- ماذا يدور في عقلكِ يا وعد؟ .. أنا لا أستطيع أنْ أفهمكِ أبدا

ضحكتْ وعد وتظاهرتْ بأنها كانت تمزح وقالت :

- الموضوع أني صرتُ أكره التسول وأريد عملا آخر

نظرتْ راضية بجدية لها قائلة بحسم :

- وعد يا حبيبتي .. أنتِ ستذهبين للخدمة في هذا البيت عن طريقي فلا تقصري رقبتي

- عيب ما تقولين يا راضية .. قلتُ لكِ إنني أبحث عن الحلال

أخذتْ راضية نفسا عميقا مع تنهيدة طويلة وهي تنظر لها بقلق ، ثم قالت :

- إذن استعدي لتذهبي معي إلى بيت الدكتور مالك الأمير في المقطم